

## عنوان المداخلة: "منهجية بحوث الإعلام والاتصال: بين تطبيق المنهج والمقاربة النظرية"

د. ليلى فيلالي

### مقدمة

يسعى الباحث في أي دراسة أكاديمية إلى إيجاد الإجابة الموضوعية غير المتحيزة قدر الإمكان عن الإشكالية المطروحة والتساؤلات المنبثقة عنها. وذلك لا يتأتى إلا « باستخدام الطريقة العلمية التي تهدف إلى التعرف على المتغيرات والمؤثرات في خطوات ومراحل معينة متميزة تخضع لقواعد التنظيم السليم والتفكير المسلسل المنظم بين النتائج والمسببات بغرض الوصول إلى الحقائق والنظريات»<sup>1</sup>.

وتحدد الإشكالية وتعين نوع المناهج والمقاربات النظرية المستخدمة في الدراسة التي يمكن الوصول من خلالها إلى استنتاجات علمية ومنطقية. ولا بد أن ندرك الفرق بين المنهج والمقاربة في إنجاز البحوث، لأن التشابه بينهما كبير من حيث التفكير المنطقي والمتسلسل للخطوات المتبعة لأجل الوصول إلى النتائج النهائية.

إذ يعتبر المنهج والمقاربة من القضايا الإشكالية في ميدان العلوم الاجتماعية والإنسانية وبخاصة بحوث الإعلام والاتصال. بل إنهما مازالتا مثار جدل واختلاف بين الباحثين، وهناك نوع من عدم الدقة والاستخدام المغلوط به لهما في هذا المجال، فنستخدمهما أحيانا كمرادفات ونستخدمهما أحيين أخرى بشكل غير موفق، إحداهما مكان الأخرى. لذلك كان هدف هذه الدراسة هو تحديد حقيقة كل من المقاربة و المنهج ، وإدراك العلاقة فيما بينهما ودور كل منهما في الدراسات الإعلامية المعاصرة.

فما أهمية تطبيق المقاربة النظرية لدعم البناء المنهجي للبحث العلمي في مجال علوم الإعلام والاتصال؟

يجاب على هذه الإشكالية في ثلاثة محاور: يختص المحور الأول بإبراز الفرق بين المنهج والمقاربة النظرية ، محور ثاني : بيوضح التكامل بين المنهج والمقاربة والنظرية في البحوث، ومحور ثالث يبين سبل تطبيق مدخل النظم في إطار نظريات الإعلام.

### أولا: الفرق بين المنهج والمقاربة النظرية

#### 1-إشكالية تعريف المصطلحين:

<sup>1</sup> - سمير محمد حسين بحوث الإعلام : الأسس والمبادئ، عالم الكتب، القاهرة، 1976، ص ، 29 .

تعد الدراسات التي تناولت هذين المفهومين –ولاسيما المقارنة - في المكتبة العربية نادرة جدا، فوردت عند الباحث صفوح خير على الشكل الآتي: " تستخدم المقاربات للدلالة على الطريقة التي يسلكها الباحث حين يعالج موضوع البحث ، أي النقطة التي يبدأ منها تناول الموضوع (2)، وبتعبير آخر الأسلوب أو طريقة التناول وهي الكيفية التي يتم بواسطتها بحث الظواهر المختلفة.

وتعد الدراسات الأجنبية التي تناولت المقارنة قليلة هي الأخرى أيضا، ولعل من أبرز الباحثين في هذا المجال Anooken وDzenes وشاريغن Charygin، ساندرز Saunders وغيرهم، وقد صنفها الأخير إلى مقاربات استقرائية وأخرى استنتاجية. أما المنهج فقد حظي باهتمام أكبر، عند كل من فاخر عاقل وعبد الرحمان بدوي وصفوت خير ورجاء دويدري ومحمد زهرة وغيرهم ، وتناولت المناهج العديد من الدراسات الأجنبية كان من أبرزها أعمال بويبر Popper، وشولي Chrley وهاجيت Hagget، شاريغن Charygen وشابلي Chabley وغيرهم. (3)

إذا كان مصطلح "المنهج" يجد تفسيراً فلسفياً وعلمياً عاماً، إذ تضرب بجذورها في أعماق التاريخ منذ بدايات استخدام زمن أفلاطون وأرسطو، فإن مصطلح المقارنة يتميز بالجدة نسبياً، ويمكن الوصول إلى هذه القناعة بعد القيام بالبحث عن معنى المفاهيم في الموسوعات الفلسفية والعلمية.

فمصطلح "مقارنة" لم يجد تعريفاً محدد لها في هذه الموسوعات ، أما مصطلح "منهج" فقد حدد بأنه " جملة العمليات العقلية والخطوات العملية التي يعتمدها الباحث للكشف عن الحقيقة. (4) وبدأ مصطلح مقارنة يظهر شيئاً فشيئاً إلى جانب مصطلح المنهج في العقد السابع من القرن العشرين ، ولاسيما في السنوات الأخيرة منه في العديد من الدراسات الإعلامية. و تسعى البحوث العلمية إلى إيجاد الإجابة الموضوعية غير المتحيزة قدر الإمكان عن الإشكاليات المطروحة والتساؤلات المنبثقة عنها. وذلك لا يتأتى إلا « باستخدام الطريقة العلمية

(2) - علي محمد دياب ، " المداخل والمناهج في الدراسات الجغرافية" ، مجلة دمشق ، المجلد62، العدد3و4 ، 2010، ص 824.

(3) - المرجع نفسه، ص 824.

(4) - محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم ، ج1، ط2 دار الطليعة ، بيروت ، 1982، ص82.

التي تهدف إلى التعرف على المتغيرات والمؤثرات في خطوات ومراحل معينة متميزة تخضع لقواعد التنظيم السليم والتفكير المسلسل المنظم بين النتائج والمسببات بغرض الوصول إلى الحقائق والنظريات» (5).

فتحدد الإشكالية وتعين نوع المناهج والمقاربات المستخدمة في الدراسة التي يمكن الوصول من خلالها إلى استنتاجات علمية و منطقية.

## 2- تباين مدلول المقاربة والمنهج:

لابد أن ندرك الفرق بين المنهج والمقاربة، لأن التشابه بينهما كبير من حيث التفكير المنطقي و المتسلسل للخطوات المتبعة لأجل الوصول إلى النتائج النهائية حيث يلتبس الأمر لدى الباحثين بين المقاربة ( Approach ) والمنهج ( Method ) بسبب التشابه الكبير بينهما، والواقع أن هناك اختلافات بين الكلمتين.

تقدم الفلسفة تعريفاً شاملاً للفظ "منهج" (la méthode): « فهو مجموعة من العمليات الفكرية التي يتبعها أي تخصص علمي للوصول إلى الحقائق والأدلة والإثباتات المبتغاة» (2). إذ أن المنهج يتبع تقنيات محددة و ثابتة لابد على الباحث أن يتبع تسلسلها بكل صرامة، لأنها الإطار الذي يحيط بنوعية البحث.

و يعرف قاموس " أكسفورد المقاربة " بأنها التعامل مع موقف ما أو مشكلة ما بطريق ما حول موضوع ما. (6)

والمقاربة هو فعل ما أو عدة وسائل للاقتراب أو للتعامل مع شخص أو شيء ما، بينما يعني المنهج في الجانب الآخر " الطريقة " أو " العملية"، التي ينفذ بمقتضاها عملاً ما، هذا هو الاختلاف الأساسي بين المدخل والمنهج. فأنت تقترب من مشكلة ما بنظرة ما للتعامل معها، وفي الجانب الآخر أنت تلجأ إلى منهج ما بنظرة ما؛ سعياً وراء حل هذه المشكلة، وبمعنى آخر

(5) - سمير محمد حسين مرجع سابق، ص ، 29

(2) Madeleine. GRAWITZ, *Méthodes des sciences sociales*, 3<sup>ème</sup> édition, DALLOZ, Paris, 1976, pp (331-332).

(6) - أحمد إبراهيم خضر ، " الفرق بين الإطار والمدخل وعلاقتها بالمنهج والنموذج"، تاريخ الإضافة 2013/6/2، <https://www.alukah.net/web/khedr/0/55442/#ixzz5ZWA93CXZ>، تاريخ الزيارة: 2018/12/10.

يمكن القول بأن "المقاربة" تقوم على التعامل مع المشكلة، بينما يقوم "المنهج" بمحاولة حل هذه المشكلة. (7)

ويعرّف "موريس أنجرس Maurice Angers" المقاربة على أنها: طريقة معينة محدثة في استخدام النظرية، وعند اقترانها بالمنهج يعرفها أنجرس بوصفها "طريقة خاصة، غير تقليدية في استعمال النظرية، بصرامة avec rigueur، وبرغبة في التنظيم" (8) تعتبر المقاربة نقطة وصل بين الأساليب العملية Opérationnelles والتقنية التي يتعامل بها الباحث مع الواقع المدروس وبين الإطار المرجعي النظري، وهو بذلك يساعد على الاقتراب المتبصر من الواقع.

وتعرف المقاربة المنهجية أيضا على أنها "تشير للتصور المنهجي لرؤية الواقع، وتناول ظواهره ونظمه ومراجعة الأنساق النظرية المصاغة حوله، ويتحدد المدخل المنهجي في ضوء المبادئ الأساسية والأسس المنطقية التي يستند إليها الباحث والتي تمثل الإطار المرجعي للمعالجة المنهجية.

"avec un souci d'ordonnance" (9)

إن المقاربة بمعناها الأولي تشير إلى الطريقة المرنة لتناول البحث من منطلق نظري (اتجاه فكري أو مدرسة)، بحيث يشكل خلفية فكرية للباحث، وإذا كان التعامل من هذا المنطق يتطلب قدرا من المرونة فإن عملية التنبؤ لأي تصور تحتاج إلى كثير من الصرامة والدقة والتنظيم، حتى يتوفر الباحث على الوضوح النظري الكافي، والقدرة على رسم الخطوات المنهجية اللاحقة. (10)

و تجد البحوث النظرية و المعرفية والكيفية على العموم، بما يميزها من اتساع و شمولية، ضالتها في المقاربات، لأنها تمنحها نوعا من الحرية في ترتيب الأفكار والأوليات

(7) - أحمد إبراهيم خضر، " الفرق بين الإطار والمدخل وعلاقتها بالمنهج والنموذج"، تاريخ الإضافة 2013/6/2، <https://www.alukah.net/web/khedr/0/55442/#ixzz5ZWA93CXZ>، تاريخ الزيارة: 2018/12/10.

(8) - Maurice ANGERS, **Initiation pratique a la méthodologie des sciences humaine**, éditions, CASBAH, ALGER, 1997, p336.

(9) - نور الدين زمام، " إشكالية المدخل المنهجي الإسلامي في حقل السوسولوجيا"، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خيدر بسكرة، العدد 12، نوفمبر 2007، ص 137.

(10) - المرجع نفسه، ص 137.

تبعاً لمتطلبات الدراسة موضوع البحث. عكس الأبحاث الميدانية التي تنحو إلى المناهج المختلفة لأن ممارستها تستدعي اتباع التقنيات والأدوات المسطرة بكل حذر وتروّي، لأن أي هفوة أو تقصير في خطة المنهج المتبع تؤدي إلى نتائج خاطئة أو غير دقيقة في كثير من الأحيان، مما يدفع الباحث إلى إعادة النظر في بحثه. ومع ذلك فقد تأخذ كلمة مقارنة لفظ منهج في كثير من مجالات المعرفة.

وفي الوقت ذاته يبدو أن الباحثين لم يصلوا بعد إلى تعريف جامع متفق عليه لمصطلح المقاربة، وكذلك التمييز الدقيق بين هاذين المصطلحين والفصل بينهما، وهو ما حدا ببعض الباحثين إلى استخدامها كمترادفات حيناً (المقاربة التاريخية والمنهج التاريخي) وكمعاكسين حيناً آخر.

### ثانياً : التكامل بين المنهج والمقاربة والنظرية:

وقد يفشل الباحث في التعامل مع بعض المشاكل، إذا لم يكن مدخله إليها جيداً وفعالاً، وفي نفس الوقت فإنه قد يفشل في حل مشكلة ما، إذا كان منهجه خاطئاً وغير فعال، وفي بعض الحالات يمهد المدخل للمنهج في حل المشكلة، ويمكن القول بصفة عامة: إن المدخل هو السبب، وإن المنهج هو النتيجة؛ فالمدخل إلى جسر ما يجب أن يكون جيداً؛ حتى تصل إلى الحافة الأخرى من النهر. (11)

وتمثل « المقاربة » (l'approche) إحدى الوظائف العظمى للمنهج في معناها الضيق، فهي تقوم باختيار التقنيات المناسبة كثيراً لبلوغ الهدف المنشود (3). فالمعنى المجازي للمقاربة يدل على ارتباطها بطريقة فكرية أقل صرامة في بنائها من المنهج، أي أنها تتميز بالسلاسة والليونة في انتقاء التقنيات مع التزام الحذر في ذلك، بمعنى أن « المقاربة هي عبارة عن منهج وتقنية منفتحة يمكن استخدامها أو الاستغناء عنها - بدرجات متفاوتة - في دراسة المواضيع الحساسة ذات ردود الأفعال غير المتوقعة. فهي غير محددة في شكل كتلة واحدة ومعلقة من التقنيات».

(11) - أحمد إبراهيم خضر، " الفرق بين الإطار والمدخل وعلاقتهما بالمنهج والنموذج"، تاريخ الإضافة 2013/6/2، <https://www.alukah.net/web/khedr/0/55442/#ixzz5ZWA93CXZ>، تاريخ الزيارة: 2018/12/10.  
- (3) -Madeleine. GRAWITZ,op.cit, p 334

تسمح المقاربة المنهجية المحددة بدقة ووضوح للباحث بالاقتراب الدقيق و"المحسوب" من الواقعة، وتمنحه القدرة على تحليل وإدراك وتفسير أبعاده، وهي تعد نقطة أو حلقة الوصل بين الإطار المرجعي النظري والمنهجية المتبعة، فهو: (12)

-على المستوى التصوري يساعد على تحقيق التناسق المنطقي، وعلى تبصر جوانب الظاهرة المدروسة، وتبين أبعادها المختلفة، والاستفادة مما قدم في ذلك من تحليلات ومفاهيم وقضايا.

-وهو يسمح على المستوى العمليتي باختيار المناهج الملائمة للدراسة التي تجرى عن واقع بعينه وفق المنظور المتبنى.

-ونتيجة لذلك، فهو يحقق الانسجام بين الجانب التصوري للبحث والجانب التطبيقي والجانب التفسيري.

### ثالثاً: نظريات الصحافة في إطار مقاربة النظم

#### 1- المقاربة المنظوماتية، المقاربة النسقية ، مدخل النظم:

يقوم التحليل النسقي على أساس دراسة الواقعة بوصفها تشكل كلية وأن الظواهر الاجتماعية يجب أن تؤول انطلاقاً من روابط الاعتماد المتبادل التي تربطها ببعضها البعض، غير أن هذا القول لا يبعدنا عن المقاربة البنيوية المشار إليها آنفاً، ولذلك يرى البعض أن جوهر التحليل النسقي يقوم على تمييز جانبيين ضمن الواقع، وهما: النسق ومحيطه. ويتشكل المحيط من مجموع العناصر التي يؤثر تغييرها على النسق، كما أنها تتأثر بحد ذاتها بمتغيرات هذه الأخيرة، وهذا هو موقف "دافيد إيستون David Easton" الذي يقول أن التحليل النسقي يقوم على مفهوم النسق المنغمس Immergé ضمن المحيط وهو موضوع لتأثير هذا الأخير.

(12) - نور الدين زمام، " إشكالية المدخل المنهجي الإسلامي في حقل السوسيولوجيا "، مرجع سابق، ص137.

وبناء على ذلك فإن المفاهيم الرئيسية لهذا التحليل هي البيئة والتفاعل، وقد ساهمت البيولوجيا والسيبرناتيقا في ظهور التحليل النسقي في حين أن الأنثروبولوجيا واللسانيات هي التي ساهمت في ظهور التحليل البنيوي.

ويعود الفضل إلى " ل. فون برتالانفي L. Von Bertalanffy " في اقتراح استعمال هذا المفهوم لتصور العلاقات بين الخلية ومحيطها، وذلك بعد الحرب العالمية الأولى، وبعد الحرب العالمية الثانية أسس "نوربار وينر Norbert Wiener " من جهته السيبرناتيقا على مبدأ "العلبة السوداء" التي تستجيب للطلبات والضغوط القادمة من الخارج، وبالاستناد إلى هذه البحوث الأولى وإلى البحوث اللاحقة المتعلقة بالديناميكا الحرارية وعلم المنظمات أطلق فون برتالانفي في الخمسينيات "النظرية العامة للأنساق".

ومن أهم سمات هذا التحليل، مقارنة بالتحليل البنيوي، تأكيده على التحولات التي يتعرض لها النسق بفعل المحرضات Impulsion الخارجية. فالنسق يتمتع بالحياة، فالمحيط يمارس عليه تأثيراً، وهو يتصرف سواء بالتحول أو بالتأثير على المحيط.

وعند الحديث عن تعديل النسق فيجب التمييز بين تعديلات النسق التي تغير حالة النسق دون تحويل خصائصه، وبين التعديلات داخل النسق التي تبدل الخصائص الأساسية. وتتم علاقات التفاعل من خلال ما يطلق عليه بالتعديل الذاتي، بحيث أن التحولات والتعديلات تحدث بشكل يحدث أو يستحدث توازن بين النسق ومحيطه. ويكون هذا التوازن مستقراً إذا وقعت التقلبات داخل الحدود المحددة، ويكون غير مستقر إذا تجاوزت الحدود. أما بالنسبة لميكانيزمات التعديل الذاتي فهي تتشكل من عملية التغذية الراجعة التي تسمح للنسق بالتصرف إزاء آثار أفعالها أو إزاء لتحولاتها وإجراء التصحيح الذاتي. (13)

## 2- التطبيقات الأساسية لمدخل النظم :

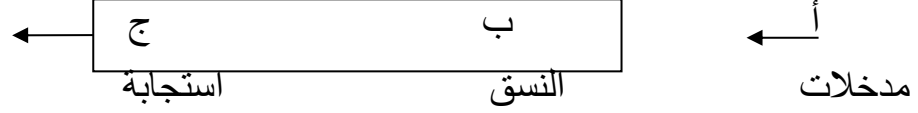
استقر دعاء النظرية العامة للأنساق على اعتبار النسق (System) وحدة التحليل الأساسية، وعرفوا النسق بأنه مجموعة من العناصر المترابطة والمتفاعلة، وعليه فإن أي ظاهرة يمكن معالجتها كنظام، أي ككل مركب من عدة أجزاء يرتبط كل منها بغيره يؤثر فيه ويتأثر به. (14)

(13) - يسرى بونيتة، المداخل المنهجية الكبرى في علم الاجتماع، [www.academia.edu/...](http://www.academia.edu/)، تاريخ الزيارة

2018/12/07:

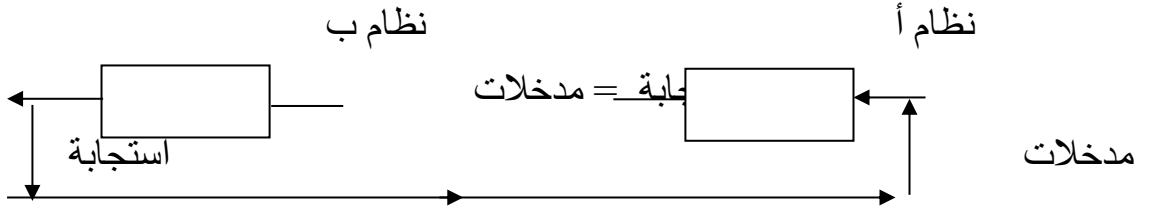
(14) - بسيني إبراهيم حمادة ، دور وسائل الإعلام في صنع القرارات في الوطن العربي، سلسلة أطروحات الدكتوراه، (21) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت، 1993، ص30.

ويحدد تريمر (TRIMMER) أبعادا ثلاثة لدراسة وتحليل النظم هي: المدخلات والنظام والاستجابة، ذلك أن المنوال المعتاد لتفكيرنا في عدد كبير من العلوم هو أننا ندرك شيئا "أ" يحدث لشيء "ب" ويؤدي هذا ب(ب) إلى إحداث شيء جديد هو "ج" ولكل فرع من فروع المعرفة لغته الخاصة في وصف هذه العملية. (15)

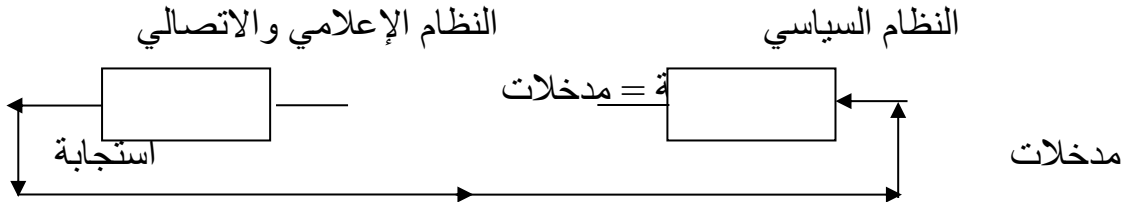


وعلى أساس الهدف من الدراسة، يكون مدى تقريفا ما بين النظام والبيئة المحيطة به، فالنظام هو ما نرغب في دراسته ككيان مستقل. وفي العلوم الاجتماعية فإن النسق يمثل مجمل القيم التي ينبنى عليها النسق، أما البيئة فهي كل ما هو خارج عن مثل هذا النسق ويحيط به، وقد نركز انتباهنا على العلاقات في ما بين النظام وبيئته على أساس أن بعض أجزاء البيئة هي التي تكون المدخلات، ويكون على النظام أن يستجيب بدوره في شكل عملية ترجيع وترديد صدى تلك المدخلات.

ويمكن دراسة التفاعل بين نظامين أو أكثر، حيث يتسع الرسم البياني " لتريمر"، بحيث يستوعب مفهوم مثل هذا التفاعل. وهنا يمكننا اعتبار استجابات نظام مدخلات نظام آخر وبالعكس، وبهذا يكون البعد قد تغير من تركيز الاهتمام في دراسة نسق معين إلى دراسة عدة أنساق، وما قد يكون بينهما من تفاعلات، والشكل التالي يوضح هذا التفاعل: (16)



وقد استعنا - في هذا الإطار - بهذا الاتجاه في ربط النظام الإعلامي و الاتصال بالنظام السياسي على أساس أن الأول انعكاس للثاني، بحيث تؤدي مدخلات النظام السياسي إلى استجابة النظام الإعلامي و الاتصال والعكس وهذا بالطبع يتجسد في الأنظمة المفتوحة والتي تتجسد فيها القيم الديمقراطية ونسقط ذلك على الشكل السابق:



أما في الأنظمة المغلقة التي لا تتجسد فيها القيم الديمقراطية فتؤدي مدخلات النظام السياسي إلى استجابة النظام الإعلامي والاتصال في اتجاه خطي دون أن تكون العملية

(15)- المرجع نفسه، ص31.

(16)- المرجع نفسه، ص32.



العكسية وفقا للشكل الآتي:

النظام السياسي      النظام الإعلامي والاتصالي

مدخلات      [ ]      [ ]      لاسترجالية

ويمثل التحليل النسقي مقاربه عملية مناسبة لدراسة وفهم التفاعل بين النظامين الاتصالي

والسياسي، كما أنها تسمح بدراسة هذا التفاعل بالنظر إلى تأثيرات النظم الأخرى.

ويتم وظيف مقارنة النظم في وصف عمليات التغيير التي تطرأ على النظام الإعلامي والنظام الاجتماعي...، على اعتبار أن أنه مجموعة من التصورات والمفاهيم الديناميكية الصريحة تعكس نموذجا منظما و متكاملا يؤثر و يتأثر بالأنساق الأخرى المشكلة لبيئته. فهو يتشكل و يتطور تاريخيا خلال عمليات التغيير السياسي و الاقتصادي و الاجتماعي.

### خاتمة:

إن إنجازات أي فرع من فروع المعرفة العلمية بما فيها علوم الإعلام والاتصال لا تتوقف كثيرا على مستواها النظري فحسب، بل على المقاربات الأساسية ومنظومة المناهج المستخدمة في عملية البحث أيضا. ويبدو أن هناك نوع من عدم الدقة عند استخدامهما. ولعله ليس مستغربا بأن تسمى بعض المقاربات مناهجا كونها قريبة منها من حيث المعنى، إلا أن المقاربات أوسع وأشمل ، وتبنى وفق أسس معينة تساعد في بناء المناهج الخاصة وتوجيهها، أما ومن وجهة نظرنا فلم يقدم تعريف دقيق للمقاربة ولم يحدد دوره وسبل توظيفها بصورة نهائية في بحوث الإعلام والاتصال.

### قائمة المصادر والمراجع:

- 1- سمير محمد حسين بحوث الإعلام : الأسس والمبادئ، عالم الكتب، القاهرة، 1976.
- 2- أحمد إبراهيم خضر، " الفرق بين الإطار والمدخل وعلاقتها بالمنهج والنموذج"، تاريخ الإضافة 2013/6/2، <https://www.alukah.net/web/khedr/0/55442/#ixzz5ZWA93CXZ>، تاريخ الزيارة: 2018/12/10.
- 3- بسيوني إبراهيم حمادة ، دور وسائل الإعلام في صنع القرارات في الوطن العربي، سلسلة أطروحات الدكتوراه، (21) مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت
- 4- محمد عابد الجابري، مدخل إلى فلسفة العلوم، ج1، ط2 دار الطليعة ، بيروت ، 1982.
- 5- علي محمد دياب ، " المداخل والمناهج في الدراسات الجغرافية" ، مجلة دمشق ، المجلد62، العدد3 و4 ، 2010.
- 6- Madeleine. GRAWITZ, *Méthodes des sciences sociales*, 3<sup>ème</sup> édition, DALLOZ, Paris, 1976.
- 7- Maurice ANGERS, *Initiation pratique a la méthodologie des sciences humaine*, éditions, CASBAH, ALGER, 1997.
- 8- نور الدين زمام، " إشكالية المدخل المنهجي الإسلامي في حقل السوسيولوجيا "، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة محمد خير بسكرة ، العدد12، نوفمبر2007، ص137.

9- يسرى بونيتة Yousra Bounita ، المداخل المنهجية الكبرى في علم الاجتماع،  
www.academia.edu/.../، تاريخ الزيارة: 2018/12/07